استعمال الألفاظ فى غير مواضعها

ومضاره الاجتماعية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

وضعت الألفاظ ليعبر بها عما يجول فى الضمائر من المعانى التى يراد نقلها إلى أذهان أناس آخرين ، وقد تقصت المعاجم الألفاظ المفردة وعينت لكل لفظ معناه اللائق به ، ووضع النحاة وعلماء البيان قوانين يعرف بها كيف تؤلف هذه الألفاظ المفردة حتى تصير جملا تؤدى صور المعانى القائمة فى النفوس كما هى .

فمن استعمل مفردا فى غير معناه المعروف فى معاجم اللغة أو مقاييسها فقد ارتكب خطأ ، وقد يبنى على هذا الخطأ خلل فى تصوير المعنى الذى صيغ الكلام من أجله ، وربما كان لهذا الخطأ ضرر على الأخلاق ونظام الاجتماع ، ونضرب لهذا أمثلة تدلك على شئ من المضار الناشئة من استعمال الألفاظ فى غير مواضعها .

يجرى فى المديح لفظ العزة والتواضع وفى الذم لفظ الكبر والذلة . والعزة : صون النفس عن مواضع الأهانة ، والذلة : الانحطاط إلى هذه المواضع القذرة ، والكبر : التعاظم فى مقام يقتضى حسن اللقاء وخفض الجناح ، والتواضع : طهارة النفس من ذلك التعاظم الممقوت

ولا تتشابه معانى هذه الألفاظ فى نظر من يميز المعانى بحدودها ، ويضع كل لفظ فى موضعه اللائق به ، ولكنك تجد فى الناس من يتعاظم ويسمى تعاظمه عزة ، أو يهوى إلى الأقدام ذلة ويسمى تذلله تواضعا ، أو يرى فى غيره عزة فيسميها كبرا ، أو يرى فيه تواضعا فيسميه ذلة ، وإلى هؤلاء يشير الشاعر بقوله .

وفى الناس من عد التواضع ذلة وعد اعتزاز النفس من جهله كبرا

وقد اشتكى بعض العقلاء من أناس سموا اعتزازه انقباضا ، ونبههم لخطئهم فى استعمال كلمة الانقباض فقال :

يقولون لى — فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

ويقال فى المديح فلان سليم القلب ، أى إن نفسه لا تنطوى على سوء ، ولا تنزع إلى شر . ويقال فى الذم : فلان خب ، والخب : الخداع الذى يسعى بين الناس بالفساد ، وقد جرى فى أوهام بعض الناس أن سلامة القلب تقترن بالغباوة وعدم التنبه للوجوه التى يأتى منها الشر ، وأن الخب يقارنه الذكاء والنباهة ، وجرهم هذا الوهم الى ان يطلقوا على الشخص كلمة "طيب" أو "مبارك" بل معنى أنه يخدع ويقع فى الشر من حيث لا يشعر ، وأراد احد الحكماء الأذكياء ان يدفع هذا الخطأ فقال . " أنت بخب ، والخب لا يخدعنى " . ومن الظاهر ان ذلك الوهم قد نشأ من الذهول عن أن العلم بوجوه الشر يقع الألمعية ، وكثيرا ما يجمع الرجل بين الألمعية وسلامة القلب ، قال عمر بن الخطاب " من لا يعرف الشر يوشك أن يقع فيه " .

ويجرى فى صفات المديح لفظ المداراة ، وفى صفات الذم لفظ المداهنة . والمداراة أن تلقى من تخشى شره بتبسم أو تخصه بإكرام ، أو تترك محاورته فى أمر يبطش بمن يحاوره فيه ، أو تذكر ما عرفته من محاسنه وتسكت عن مساويه ، أما المداهنة : فهى أن تصفه بالعلم وهو جاهل ، أو بالشجاعة وهو جبان ، أو بالعدل وهو ظالم ، أو يبدى رأيا خطأ فتقول له : أصبت الحق ، وقد يخطئ بعض الناس فيحسب البشاشة فى وجه المطبوع على الإساءة اتقاءاً لإساءته مداهنة ، ويحسب آخرون أن التبسط فى إطراء من يتقى شره مداراة ، فى حين أن علم الأخلاق يسمى الذى يجرى على لسانه مديح الأشرار منافقا ومداهنا . ويسمى أناس الإحجام حيث يجب الإقدام حزما ، وإلى هؤلاء يشير المتنبى بقوله :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

ويسمى أناس بسط اليد بالمال فى وجوه البر إسرافا ، وقال بعض هؤلاء لمن أنفقوا فى سبيل الخير مالا كثيرا " لا خير فى الإسراف " فقال . " لا سرف فى الخير " ويسمى أناس الأناة إبطاء ، والأناة مقام غير مقام الإبطاء ، قال شاعر الحماسة :

منا الأناة وبعض القوم يحسبنا أنا بطاء وفى إبطائنا سرع[1]

ويسمى أناس إطلاق اللسان أو القلم بهجاء الأشخاص ، أو بالنقد الخشن بالسباب ، حرية ، وإنما الحرية فى إبداء الآراء أو نقدها بأسلوب تأذن به الفضيلة ولا تنكره آداب البحث .

وقد يطلق الناس اسم المباح على المحظور ليتناولوه أو ليدعوا اليه فى غير تحرج ، وإلى هذا يشير النبى الأكرم صلوات الله عليه بقوله . " يشرب الخمر ناس من أمتى يسمونها بغير اسمها " [2] .

وقد تنبه لخطر تحريف الألفاظ عن مواضعها " كونفشيوس " زعيم المذهب الذائع فى الصين " الكونفشيوسية " وجعل من أسس مذهبه فى الإصلاح الرجوع بالألفاظ إلى موضوعاتها الصحيحة وقال . " إذا لم تكن الأسماء صحيحة لم يطابق الكلام حقائق الأشياء وإذا لم يكن مطابقا للحقائق وقع الخلط فى اللغة واضطربت الأفكار ، ولم تقع العقوبات على من يستحقها فتتعطل الأعمال المدنية " .

وليس من شك فى أن استعمال الألفاظ فى غير مواضعها وسيلة من وسائل اختلال الشؤون الاجتماعية ، وأنه من واجب المصلحين تنبيه الناس لهذه الناحية من الفساد ، وأن يتداركوا إصلاحها بعناية وحكمة .

---

(١) السرع : السرعة .

(٢) رواه الإمام النسائى فى سننه .